إشكاليّة الوطن: المفهوم والهُويّة
دراسة في كتابات محمد صابر عبيد

د. محمد شيرين تشكار

مفهوم الهُويّة والوطن:

ينطوي مفهوم الهوية على وصف طبيعة الشخص وتعبيره عن فرديته وعلاقته مع الجماعات (كالهوية الوطنية أو الهوية الثقافية). وغالباً ما يستخدم هذا المفهوم في علم الاجتماع وعلم النفس، وتلتفت إليه الأنظار على نحو كبير في علم النفس الاجتماعي. وقد جاء مفهوم الهوية في اللغة العربية من كلمة: هو(١) التي هي معادل الأنا في المنظور المعرفي النفسي، إذ تتشكّل العلاقة بينهما على أساس التفاعل (الوطنيّ) بين الأنا والهو.

الهوية في مرجعيتها الوطنية العامة هي مجمل السمات التي تميز شيئا ما عن غيره أو شخصا ما عن غيره أو مجموعة عن غيرها. كل منها يحمل عناصر عدة في هويته تميّز انتماءه للزمان والمكان والرؤية. وعناصر الهوية على هذا الأساس هي شيء متحرك ديناميكي يمكن أن يبرز أحدها أو بعضها في مرحلة معينة وبعضها الآخر في مرحلة مختلفة(٢)، بحسب طبيعة التحولات الطبيعية التي يمرّ بها الشخص أو تمرّ بها الجماعة في سياق درجة ارتباطها بالمكان والزمان.

إن الهوية الشخصية تعرف شخصا بشكله واسمه وصفاته وجنسيته وعمره وتاريخ ميلاده(٣) وكل ما يتعلّق بصيرورته الشخصية التي تميّزه عن الآخر، أما الهوية الجمعية ذات الصفة (الوطنية أو القومية) فإنها تدل على ميزات مشتركة أساسية لمجموعة من البشر، تميزهم عن مجموعات مغايرة(٤) تعيش في وطن آخر وقومية أخرى.

أفراد المجموعة (الوطنية أو القومية) يتشابهون بالميزات الأساسية التي كونتهم بوصفهم مجموعة ومتجانسة ومستقلة، وربما يختلفون في عناصر طبيعية تخص أفرادها لكنها لا تؤثر على كونهم مجموعة(٥) بالمعنى الشامل الكينوني العام. فما يجمع أيّ شعب في العالم هو وجودهم في وطن واحد ولهم تاريخ طويل مشترك، وفي العصر الحديث لهم أيضا دولة واحدة ومواطنة واحدة، كل هذا يجعل منهم شعبا متمايزا بحكم الانتماء إلى المواطنة والوطنية، حتى بالنسبة لمجتمعات تتباين في أعراقهم وأديانهم وإثنياتهم كالشعب الهندي مثلاً إذ هم يختلفون فيما بينهم في الأديان واللغات وأمور كثيرة(٦)، لكنهم ينتمون إلى هوية وطنية واحدة يحترمها الجميع. فلا شك في أن العناصر التي يمكنها بلورة هوية جمعية ذات طبيعة وطنية هي كثيرة، أهمها اشتراك الشعب أو المجموعة في: الأرض، اللغة، التاريخ، الحضارة، الثقافة، الطموح وغيرها(٧)، مما يجعل الهوية الوطنية أعلى من الهويات الأخرى الشخصية.

تطورت الهويات القومية أو الوطنية تطورا على نحو طبيعي عبر التاريخ، لكنّ عدداً منها نشأ بسبب أحداث أو صراعات أو تغيرات تاريخية سرّعت في تبلور المجموعة، وثمة قسم من الهويات تبلور على أساس النقيض لهوية أخرى. هناك تيارات عصرية تنادي بنظرة حداثية إلى الهوية وتدعو إلى إلغاء الهوية الوطنية أو الهوية القومية(٨)، في سياق الانتماء إلى فكرة العولمة التي تسعى إلى تدمير الهويات والاكتفاء بهوية واحدة تحت سلطة الإمبريالية العالمية.

ويمكن على وفق هذه المقاربات النظر إلى ماهية مفهوم الهويّة بوصفها الإعلاء من شأن الفرد، والوعي بالذّات الثقافيّة والاجتماعيّة والوطنية، لذا فهي تخضع لتحولات الواقع ولا يمكنها أن تثبت على صيغة أبدية واحدة، وهي تمثل الخصوصيّة والذّاتيّة القائمة على ثقافة الفرد ولغته وعقيدته وحضارته وتاريخه ووطنه.(٩) في نموذج تشكيلي خاص ومختلف.

الرؤية الوطنيّة في مفهوم محمد صابر عبيد:

محمد صابر عبيد يعدّ من أبرز نقاد الأدب الحديث في العالم العربي(١٠) فضلاً عن كونه أكاديميا ومن أبرز الشعراء العراقيين المحدثين. وهو ((أحد أعلام الثقافة العربية المعاصرة، استطاع في العقود الثلاثة الماضية أن يكون صوتاً نقدياً بارزاً حيث صدر له أكثر من ثلاثين كتاباً في النقد))(١١) فضلاً عن كتب أخرى في الشعر والنظرية، وقد عُرف ((بمدوّنة نقدية غزيرة ومتنوعة تقارب الشعر بأنواعه والسرد بفنونه المتنوعة، نابعة من ثقافته العالية وإلمامه الواسع بعلوم العربية كافة، فضلا عن اطلاعه على كل المستجدات في النقد الحديث العربي والغربي على حدٍّ سواء، وقراءاته المتعددة للمناهج الحديثة، والأجناس الأدبية كافة ونظرة واحدة لمؤلفاته ستبرهن على هذا الحسّ النقدي بأهمية هذه الأجناس وكيفية تشكيلها، ولاسيما أنه أفاد من هذه الأجناس في طريقة ترابطها المنهجية وصياغتها الأسلوبية، فهناك قراءات تعتمد على التداخل الاجناسي فيما بينها، ومثل هذا التداخل لا بدّ للناقد أن يلمّ بأدواته ومرجعياته ليكون قادرا على توجيه رؤيته النقدية/القرائية الوجهة الصحيحة))(١٢)، على النحو الذي جعل منه أكاديميّا كبيرا ((كان له تأثيره في كلّ الجامعات والكليات التي عمل فيها، تخرّج على يديه عشرات الطلبة الذين يحملون الآن درجات علمية عالية ويعملون في الجامعات العراقية والعربية، وأسهم في تقديم الكثير منهم إلى الساحة الثقافية العربية.))(١٣)، بما يجعل منه أستاذاً ومبدعاً لا يكتفي بكونه أستاذاً تقليدياً ينتهي دوره في قاعة الدرس فقط، بل هو يتجاوز ذلك بروح أكاديمية وطنية تحوّل الجامعة إلى وطن صغير يستحق الانتماء والخدمة والتضحية.

نزح من الموصل ليلة سقوطها في العاشر من حزيران ٢٠١٤م ولجأ إلى تركيا، وكان لهذا أثر عظيم في حياته وتجربته الأدبية، وانعكس ذلك على أدبه شعرا ونثرا، تمثّلت رؤيته على الصعيد النثري المقالي في مجموعة من النصوص نشرها في الصحافة العربية(١٤) ثم جمعها في كتاب عنونه بـ (صوت البركان: سيرة الكوميديا العراقية)(١٥)، كشف عن رؤيته الوطنية القاسية ضمن تجربة ذاتية أكثر قسوة.

للوطن مكانة كبيرة في هذا التحوّل العاطفي الوجداني والفكري المفهومي والرؤيوي عند الكاتب حبا ونقدا ورؤية. وسنحاول أن نناقش مفهوم الوطن بوصفه هويّة في كتاباته من جميع تلك الجوانب بعد نزوحه من وطنه المحتل، إذ شكّلت تلك الكتابات إشكالية على صعيد المفهوم من حيث إعادة إنتاج فكرة الوطن والمواطنة (مفهوماً) من الناحية الوجدانية، وطبيعة الرؤية التي تشكّلت بفعل التجربة القاسية التي عاشها الكاتب، وقد تراوحت بين الحنين إلى المكان القديم (الوطن) والتآلف مع المكان الجديد (مكان اللجوء)، فضلاً عن تشكّل حساسية جديدة للنظر إلى فكرة الوطن والمواطنة في إطار جديد فرضته ظروف التجربة القاسية الموصوفة بـ (النزوح)، وقد سخّر لها الكاتب لغة متوهجة ذات طاقة تعبيرية وتشكيلية عالية، امتزج فيها التعبير بالتجربة ضمن رؤية فكرية تعاين المفردات والمفاهيم وحدود التجربة المعيشة معاينة خاصة ونوعية.

الوطن عند صابر هو العراق بأكمله من جبال كردستان إلى خليج البصرة وهو بلاد الرافضين الذين لا يرضون بغير وحدة العراق: "عراقي وعراقكم وعراق العالم كلّه، البلدُ الثاني لكلّ من له بلدٌ أوّل، والبلدُ الأوّل لكلّ من لا بلدَ له"(١٦)، العراق من مسلّة حمورابي إلى الجالغي البغدادي كأنه مهد العلم والحضارة والإنسانية ولذلك يتمركز كل شيء فيه ولذا هو لكل الناس، العراق عراقُ الأزل، نشأ بلا دين ولا سياسة (١٧)، إذن العراق كان موجودا قبل كل الأديان والسياسات التي تسعى اليوم إلى تفتيت الهوية العراقية وتدميرها، والكاتب هنا يحاول بناء الهوية الوطنية ضمن رؤية تاريخية ونفسية تتشكّل في سياق المعرفة والإحساس معاً، فاللغة التي يستخدمها هنا هي لغة شعرية تستند إلى المعطى التاريخي المعرفي، وتمتزج بإحساس التجربة وعنفها وطاقته الخلاقة على الوصف والتعبير والسرد.

يصف الكاتبُ الوطنَ أرضاً شاسعة حرّة من كلّ أنحائه(١٨)، وقد تلذذ بوطنيته وانتمائه عند طفولته الغضّة البريئة "يوم كنّا طلبةً في الدراسة الابتدائية نتجمّع صباحاً أمام صفوفنا بانتظام يشبه نظام العسكرية، يفتّشنا المعلمُ كي يتأكّد من نظافتنا كما يفتّش الضابط جنوده، ويقوم بعضُنا برفع العلم خفّاقاً في الأعالي، نردّدُ النشيدَ الوطنيّ بصوت جماعيّ خلّاب يعانق ألوانَ العلم العراقيّ الزاهي وهو يرفرف في حضن الأفق، كان ثمّة إحساسٌ غامضٌ يُشعرُنا

بالزهو ويطيّرُ قلوبنا نحو المدى المفتوح ببهجة لا تدانيها بهجة، ما أحلى أن يكون للإنسان وطن يحبّه، وعلمٌ يغنّي له، ونشيدٌ وطنيّ يملأ فمه به كلّما عَنَّ له أن يجهرَ بوطنيته شاعراً عاشقاً يغرّدُ بجغرافيا الأرض وذاكرة التاريخ وحساسية الماء والهواء وعلامة الهوية، ويدافع بالكلمة الحرّة المجيدة عن مصير كيان يقدّم له ما بوسعه من واجبات وينتظر ما يستحق من حقوق يُدعى بكلّ وضوح وثقة وألق وفرح ومباهاة بـ (وطن)"(١٩)، فالتوق إلى الإحساس بالوطنية في روح الكاتب ومفهومه يرقى إلى مستوى الحلم، لكنه يشير استناداً إلى رؤية تحليلية نفسية نحو فقدان هذا الحلم وتشتته في أحاسيس متضاربة منذ الطفولة، وهو ما يعني أن تجربته مع فكرة الوطن ومفهوم الوطنية ظلّ حلمياً أكثر منه على أرض الواقع، إذ شهد في سنوات حياته تجربة مرّة أبقت بحثه عن وطن وهوية معلقاً في سماء حلمه الشعري منذ أن غنى للوطن والعَلَم والنشيد الوطني وهو صغير مملوء بالحلم والانتظار.

يتفاقم الحلم الوطني عند الكاتب حتى يتحوّل إلى محنة يعيشها في ظلّ ضياع يتلمّسه في كل مفردة وكل عنوان وكل صورة، الأمنية التي يترسمها الكاتب لوطن يبدو مفقوداً في راهنه هو الوطن الحلم الذي يتلاشى على أرض الواقع: "وطنٌ له حدود وسيادة وقوّة ومَنَعَة، ومواطنٌ حرٌّ يعيشُ بهدوء وكرامة وحرية وطمأنينة وإيمان مطلق بالمستقبل تحت ظلاله الوارفة، حتى ليشتهي مرّة أن يتعرّض الوطنُ لخطر ما كي يجّردَ سيفَ عواطفه وانتمائه وحبّه وجسده ليذودَ عنه، مؤكّداً حقّه في المواطنة لوطن أصيل حقيقيّ ملموس يراه كما يرى نفسه، ويشعر به كما يشعر بأيّ عضو من جسده حين يتألم أو يُستنفر أو ينتشي أو يذهب برغبته إلى سبيل مدهش من سُبُل المتعة."(٢٠)، فيتحول الحلم بالوطن إلى وجع حقيقي يلوذ به الكاتب تعبيرا عن حاجة وطنية مفقودة تجعله بلا هوية، وربما نلاحظ القيمة التعبيرية وهي تتركّز حول الفكرة على نحو محتشد مكتظّ بالدلالة والرؤية معاً، بما يجعل من العرض المقالي مجالاً رحباً لتجلّي الفكرة مقترنةً بالإحساس، ويجعل الفضاء الأسلوبي ملتحماً بالمعنى الغزير المُراد ضخّه هنا تعبيراً عن جوهر الحساسية الذاتية عند الكاتب.

إنّ التأمل في وطن الحلم عند الكاتب لا يبتعد كثيراً عن الوطن في الواقع، ففي عبارة قاسية يقول: "ونحن العراقيين لا حظّ لنا"(٢١)، والحظّ هنا بلا أدنى شكّ مرتبط بالمصير الذي آل ويؤول إليه العراق/الوطن/الهوية، فبعد الاحتلال الأميركي للعراق وتغيير النظام والتبشير بالديمقراطية المزيّفة تعرّض الوطن لأكبر عملية سطو في التاريخ، وأكبر تفتيت للهوية الوطنية لم تحصل في تاريخه، إذ لا أحد يعلم كما يقول الكاتب: "كيف تُنفق ميزانيات العراق الضخمة سنوياً، حتى أنها بلغت هذا العام كما يقال بحدود ١٥٠ ملياراً (مليار ينطح مليار)، ربما تكفي لبناء عشر مدن حديثة كاملة، غير أنها تتبعثر من دون أن يُبلّطَ شارع، أو يُبنى مشفى، أو تُفتتح حديقة عامة، أو تُبنى مدرسة، أو يُقام مصنع، أو تُستصلح أرض زراعية، أو يُؤسس مركز أبحاث، أو يُستتب أمن، أو يختفي الجياع من على أرصفة الطرق، أو يقلّ عدد العاطلين عن العمل من خريجي الكليات (في الأقلّ)، أو لا تفيض بيوت المواطنين في يوم ممطر، أو لا يتشرّد مواطنون جدد لأسباب تافهة، أو .. أو .. أو، حيث لا تقرأ في عيون العراقيين وقد زحف إليها بياض الأسى سوى الحسرة والشكوى وتفويض أمورهم لله الواحد القهّار، بعد أن أكلَ اليأس من جرف أحلامهم البسيطة ما أكل حتى جفّت أحلامهم وتصحّرت آمالهم وانعدمت تطلعاتهم، وأصبح لسان حالهم يقول (العُمر يا شامان) راضينَ من الغنيمة بالإياب"(٢٢)، في قراءة تقطّر وجعاً وموتاً وفجيعة، يذهب فيها الكاتب إلى تحليل منطقي لحال العراق عام ٢٠١٤م بعد أن ارتفعت ميزانيته السنوية إلى أعلى رقم في تاريخه، بأسلوب إنشائي جميل لا يقلل من شأن الفكرة ولا تقلل الفكرة من شعرية الأسلوب، إنه نداء صارخ وخطاب يعلو صوته على الأصوات كلها، حيث تتعرّض الوطنية في فكرتها وواقعها وإجرائيتها الميدانية إلى نوع من المحو يسحق ما تبقّى من الإيمان بالهوية لدى الذات والمجموع، بما ينضوي تحت خيمة هذا الكلام من مرارات وخسارات وضياعات وفقدانات لا حصر لها، وربّما جاء استثمار الكاتب للمثل الشعبي (العُمر يا شامان) يعقبه المثل الفصيح (رضى من الغنيمة بالإياب) متوافقاً مع مقتضى الحال، فعلى الرغم من وضوح فكرة الكاتب في توصيف الحال على أفدح ما يكون، لكنّ ثمة حساسية رمزية تتجلى في الصور التي يرسمها من أجل توسيع دائرة السرد والوصف، وصولاً إلى تشكيل كتابي يجمع بين مرارة التجربة وحلاوة الأسلوب.

ولا شكّ في أنّ أسلوب الكاتب عبيد

في نظر الكثير من الباحثين الذين درسوه ((يجمع بين الأسلوب المشرقيّ المتمثّل بنقادنا العرب المشارقة، والأسلوب المغاربيّ المتمثل بنقادنا العرب المغاربة، الأول يميل إلى السهولة في العرض والمقاربة، والثاني مائل إلى التعقيد في العرض من خلال إرهاق النصّ بالمصطلحات المعرّبة، والإيغال بعيداً في النحت للمفردات والكلمات العربية بداعي التجديد في اللغة والتحديث.))(٢٣)، على نحو يميّزه عن الكثير من مجايليه من المبدعين العرب في تحقيق معادلة أسلوبية تجمع بين أسلوبين مختلفين وتنتج أسلوبا خاصا به، كان له الأثر البالغ في لفت الأنظار نحو أسلوبيته المختلفة في التعبير الأدبي والنقدي.

الهُويّة والانتماء:

ينفتح مفهوم (الهوية) أساساً على فكرة (الانتماء) في منظورها الجوهري الخاص بترتيب العلاقة بين الإنسان والمكان، المواطن والوطن، ويتحرّى محمد صابر عبيد صورةً منتخبةً للوطن تستجيب لتجربته الوطنية في الحياة، فهو على المستوى الفكري لا يهتم بشكل أو اسم النظام للوطن ولكن عنده مبادئ عامة تستوفي شرط الوطنية، وتحيل على رؤية خاصة نابعة من صميم تجربة العراق منذ تأسيس الدولة العراقية، إذ يقول: "وكنت حينها طالباً أحضّر للماجستير، تمنّيت لو أنّ تلك الحقبة مازالت، وعشقت أن أكون أحد رعايا الملكيّة، إذ أدركت أن تربية محاطة بكلّ ما هو راق وأصيل ومتحضّر ومدنيّ وعصريّ كتلك التي كان يتلقّاها الملك فيصل الثاني (الشاب الصغير) وهو في عهدة خاله الوصيّ عبد الإله، لهيَ تربية ملوك حقّاً، وعليّ وعلى غيري من المتطلّعين إلى حياة حرّة كريمة متحضّرة ومدنية وعصرية أن يثق بملك ينشأ هذه النشأة وينمو هذا النموّ ويتربّى على أخلاق الفضيلة والحقّ والعدل والمساواة والتسامح، ولتذهب كلّ المقولات الثورية السخيفة للحفاة اليساريين والقوميين وغيرهم من عبدة الشعارات الفارغة الجوفاء إلى الجحيم"(٢٤)، فهو يرى في سياق موازنة عمليّة إجرائية بين الأنظمة التي حكمت العراق من عام ١٩٢٠م حتى الآن أن النظام الملكي هو النظام الوحيد الذي يستحق الاحترام، وهي رؤية لا علاقة لها بطبيعة النظام بقدر ما تنظر إلى طبيعة التجربة التي مرت على العراقيين في هذه الحقبة التي تقترب من قرن من الزمان.

وفي مجال تشكّل الهوية وتحقيق الانتماء ينظر عبيد إلى سلّة الوطن بوصفها مكاناً ساحراً جميلاً يحتوي الفواكه المختلفة بتجانس رائع وسحر أخّاذ، حين يقول في مقالته أخوانْ سنّة وشيعه... هذا الوطنْ.. ما نبيعه؟!: "هذا شعارٌ وطنيٌّ رائعٌ على الصعيد النظريّ والإعلانيّ والدعائيّ الجماهيريّ يرفعُهُ العراقيونَ، الشعبيونَ، الدراويشُ، أصحابُ القلوب الطيبة (سنّتهم وشيعتهم) هاتفين بوحدة العراق ومصيره ومستقبله حين يكونُ السنيّ أخاً للشيعيّ والشيعيّ أخاً للسنيّ، لا بأسَ بوجود السنّة والشيعة في بلد متنوّع مثل العراق، يضمّ العربَ والكردَ والتركمانَ والفيليين والشبكَ والصابئةَ المندائيين، المسلمين والمسيحيين (واليهود سابقاً) والإيزيديين وربما طوائفَ دينيةَ وغير دينية أخرى لا أعرفُها ولم أسمع بها، ويضمّ ويضمّ كلّ شيء تقريباً، وما الضيرُ في ذلك إذا كانَ بلدٌ عظيمٌ في تسامحه وعدد نفوسه وتنوعه الهائل مثل (الهند) بأكثر من مليار وربع المليار إنسان (يا إلهي!؟) يضمّ طوائفَ وإثنيات وأديانَ وقوميات وأشكالاً وألواناً على نحو لا يمكنُ حصرُهُ ولا ضبطُهُ، ومن دون مشاكل تُذكر؟"(٢٥)، وهذه الإضمامة المتنوعة يجب أن تكون سبباً للسعادة والرقيّ والتقدم لا مجالا للصراع والتنافس غير الشريف من أجل الاستحواذ على الحياة والثروات من دون الآخر، فالهوية والانتماء يتحققان بحسب نظرية الحقوق والواجبات بصرف النظر عن الدين والقومية والعِرق والطائفة واللون والشكل، فالوطن هوية الجميع وانتماء الجميع حين يشتركون في الأرض والسماء، استطاع الكاتب بأسلوبه السهل الممتنع أن يعكس رؤيته الشخصية بصور مركّزة ذات منطقية عالية قادرة على الإقناع والتأثير بشكل يجمع بين قوّة المقولة وسحر الأسلوب.

إنّ المسبب الحقيقي لإسقاط الوطن بوصفه هوية وانتماء كما يرى الكاتب عبيد هو تفاقم ظاهرة التحزّب القائمة على حصد المكاسب على حساب الوطن، إذ يقول: "السياسة وحكم الشعوب لا تأتي عن طريق ارتجال البيانات والخطابات والإنشاءات والمقالات والخُطب والأناشيد وتحية العلم، والأحزاب التي أثبتت أنها لا تشتغل سوى على مصالحها التافهة ولا أستثني أيّ حزب من الأحزاب العربية، يسارية أو يمينية، شرقية أو غربية، شمالية أو جنوبية، قديمة أو جديدة، ميتة أو حية، أحزاب تصعد على دماء الفقراء ثم ما تلبث حين تسيطر على مقدّرات البلدان

وشعوبها أن تلعب برؤوس هؤلاء الفقراء وتسحقها لتصنع منها أمجاداً ومنجزات فريدة لم يحققها أحد من قبل، إذ غالباً ما تأتي هذه القيادات من الريف أو من قاع المدينة، قيادات ناقصة التعليم والثقافة والتربية والرؤية، يتقنُ فرسانُها القتلَ أكثرَ مما يتقنون قراءة كتاب، أو حضور عرض مسرحيّ، أو التمتّع بلوحة فنية، أو مشاهدة عرض سينمائيّ، أو الاهتمام بتنسيق حديقة، أو تخصيص وقت مناسب للتأمل، ويحاربون في اليوم الأوّل الذي يتسلّمون فيه السلطة المثقفين والأدباء وحملة الشهادات الأكاديمية والعلماء الاختصاصيين، لأنهم يذكّرونهم بنقصهم دائماً"(٢٦)، فهو هنا يضع يده على الجرح الوطني العميق ويفضح الفكرة الحزبية المتخلفة للأحزاب العربية ولا يستثني منها أيّ حزب، حين يحشد أدلّته ويعرضها بطريقة فنية وعلمية مزدوجة، وبلغة أدبية راقية تصل إلى أهدافها بمرونة تعبيرية وتشكيلية بعيدة عن الخطابية البيانية الجوفاء، ويستخدم أسلوباً نوعياً يقوم على تحميل فكرته أكبر قدر من قوة الحجة، ويسيّرها على مساحة أسلوبية لا تكتفي بتوصيل الفكرة بل تنفتح على طاقة إبداعية توفر فرصة الاستمتاع بالكلام، على نحو يجعل من مقالته وسيلة أدبية تنهض على الإلماحة واللقطة والصورة والمشهد في سبيل بلوغ مرحلة التوصيل.

ويستمر الكاتب في كشف زيف هذه الأحزاب والمتسلّطين عليها وهم يرومون تحقيق أهدافهم الذاتية الخاصة، بعيداً عن الوطن والوطنية والمواطنين، وبعيداً عن الماضي والحاضر والمستقبل، داخل ثقافة دنيئة أقرب إلى ثقافة العصابات والمافيات منها إلى الثقافة الوطنية، ويقول استكمالاً لرأيه السابق في وصف هؤلاء: "أنفقوا جلّ حياتهم في السرقة والسطو والعربدة والاعتداء على الآخرين والقتل داخل ثقافة حزبية هي أقرب إلى ثقافة العصابات، وفجأة تسيّدوا المشهد ليصبحوا رؤساء ووزراء وقادة ضروريين يفهمون في كلّ شؤون الحياة! يعلّمون الضابط كيف يقود جنوده، ويعلمّون الأستاذ كيف يدرّس طلبته، والمهندس كيف يخطّط لمشاريعه، والطبيب كيف يعالج مرضاه، والفلاح كيف يزرع أرضه، والعامل كيف يصنع، والأم كيف تربّي طفلها، والشاب كيف يختار شريكة حياته، وليس على المواطن مهما كان تخصصه وعمله ومهنته سوى أن يأخذ بتعاليم القائد ليتبارك بها ويتعلّم منها، ومن ثمّ يشكر الله على نعمائه بأن أرسل له قائداً ضرورة يعلم ما لا يعلمون، وليسبّحَ الجميعُ بحمد قيادته الحكيمة إلى أبد الآبدين"(٢٧)، ويتضح جلياً هنا صفة أسلوبية مهمة من صفات الكاتب الأسلوبية التي تظهر في أكثر كتاباته من هذا النوع ألا وهي صفة السخرية، وهي صفة أسلوبية ذات أهمية كبيرة في بعث الفكرة وتسهيل تلقّيها من القراء والمتلقين، ولاسيما إذا حفلت كما هي هنا بأكبر قدر من التكثيف الإبداعي وجماليات التعبير في التشكيل الصوري المتنوّع، مع الحفاظ على جوهر الموضوع وتقديمه بشكل جميل ومثير وقادر على الإدهاش وتقديم الفكرة في آن.

تتعرّض الهوية الوطنية ويتعرّض الانتماء للتدمير والإقصاء والتهميش حين تتسبّب السلطة الحاكمة المتخلّفة في تحويل الوطن إلى ملك شخصيّ، وهو ما حلّله الكاتب بدقّة وشمول في قوله: "من يتسلّم السلطة في العراق يعتقد أنّ كلّ شيء ملكٌ شخصيٌّ له (طابو)، إرثٌ حلالٌ تركه له أبوه المفلس وجدّه المتسوّل، يتصرّف بحياة الناس وثروتهم ومصيرهم كما يشاء أو كما يلبي طموحه أو جنونه أو وهمه، ويشرعن ذلك بما هو متاح له دائماً من أساليب شرعنة لا يُقنع بها سوى نفسه المريضة، لكنّها على أيّة حال تسير بحسب ما يشتهي ويريد بصرف النظر عمّن ينتقد ويشجب ويفضح ويعارض، المتسلّط هو الحقّ وهو القانون وهو النظام وكلّ ما عداه باطل وفوضى وخارج عن القانون، لأنّ الآخر في عُرف المتسلّط هو خائن وملفّه حاضر وجاهز وقت اللزوم، وهي أسهل وسيلة قهر وتصميت وإسكات واستباحة للذات الإنسانية حين يشعر الإنسان بأنه مهدّد بشرفه ووطنيته في أيّة لحظة، سلوكيات أقل ما يمكن أن يُقال عنها إنها تنتمي إلى القرون الوسطى"(٢٨)، وهو يصل بذلك إلى إنكار قدسية فكرة الوطن والمواطنة واستباحتها وتحويل الوطن إلى ملك شخصيّ والمواطنين إلى أُجَرَاء بلا حقوق، فالحقّ كلّه للقائد الضرورة الذي لا بديل له ولا لحزبه، وقد تمكّن عبيد هنا من تشخيص الظاهرة تشخيصاً دقيقاً يقوم على الرؤية والتجربة معاً، وبأسلوب مشرق يجمع بين آليّة الحجاج وجمالية التعبير في نصّ متماسك تقترن فيه العاطفة مع التوصيف الدقيق للحالة.

يتأتى هذا الأسلوب الخاص للكاتب والناقد عبيد من تجربة إبداعية ثرّة أفادت من التحولات المنهجية على نحو أصيل، إذ ((إن تلاحم النظرية والرؤية والمنهج عند الناقد هو مفتاح الوصول إلى أسلوب نقدي خاص مميز لعمله النقدي،

وإذا كان عمل الناقد الدكتور محمد صابر عبيد على هذا الصعيد يبدأ من الرؤية الحداثية وما بعد الحداثية كما أشار إلى ذلك الكثير ممن درسوا خطابه النقدي وسعوا إلى تحليله وتفكيكه، فإن الوصول إلى النظرية كما عبّر الناقد محمد صابر عبيد يأتي عنده من خلال الإجراء، فالنظرية المسبقة لديه عمل فلسفي وليس عملا نقديا، وقد يفيد الناقد من معطيات أية نظرية فلسفية في أي مجال من مجالات المعرفة القريبة من العمل النقدي، لكن لن تكون نظرية نقدية بالمعنى النظري النقدي المطلوب.))(٢٩)، فهو يعوّل على البعد الإجرائي القائم على التجربة الميدانية الحرة في صوغ نظريته وبناء أسلوبه في التعبير والتصوير والتشكيل.

الرؤية الوطنية في الشعر:

لا يختلف محمد صابر عبيد السارد في مجمل مقالاته السابقة التي تدور كلها حول فكرة الوطن المسحوق والهوية الضائعة عنه شاعراً في السياق نفسه، فقد نشر مجموعة من القصائد تعمل في دائرة هذه الفكرة القائمة على تثوير مفهوم الوطن والهوية، غير أنّ قصائده تدخل في غمار رمزية عالية أحياناً تتفاعل مع فكرة الغموض التي حلّت بفكرة الوطن والوطنية والمواطنة والهوية، ففي قصيدته الموسومة بـ (قارئ الفنجان) ذات العنونة المثيرة من حيث ارتباط المعنى العنواني بالمتخيّل والغامض والماورائي، يتجه الشاعر نحو تمثيل الفكرة الشعرية في شبكة من الصور الشعرية تحرّكها الأنا الشاعرة بحثاً عن حلّ ومصير.

تعمل القصيدة على فكرة الترميز وتحيل إحالة كاملة على مفهوم الوطن والوطنية والهوية والانتماء بصورة شعرية إجمالية متكاملة. (٣٠)

أبصرُ في عين عقلي صوتَ الديناصور
يتوكأ على ثلاث عصيّ

تحكي القصيدة أزمة الذات الشاعرة بإزاء محنة وطنه (العراق) بعد أن تكالبت عليه القيم الطائفية القومية والدينية ومزّقت لحمته، فالاستهلال الشعري في القصيدة يقدم صوت الشاعر (الوطنيّ) بإزاء (صوتَ الديناصور) القادم نحو التدمير بلا هوادة (أبصرُ في عين عقلي صوتَ الديناصور/يتوكأ على ثلاث عصيّ/ يتمثلن أفاعيَ/يتبادلن الأماكن والأدوار برشاقة ويسر).

والصوت الديناصوري رمز لصوت الظلام القادم من مكمن الخرافة والأسطورة، ولا شكّ في أنّ العصيّ الثلاث تحيل رمزياً على القوى الثلاث التي تقاسمت السلطة في العراق بعد الاحتلال الأميركي. وإذا كان الديناصور في هذه الحالة يمكن أن يرمز إلى الوطن المحنّط على شكل حيوان خرافيّ هائل مأخوذ من الموروث الشعبيّ والحكايات الخرافية، فإنّ هذه العصي الثلاث هي التي تسعى إلى تحريك ثبات الديناصور بما يناسب مطامعها وأهدافها الخاصّة، على نحو تتحوّل كلّ عصا منها إلى أفعى ترسم صورة (الديناصور/الوطن) على وفق رؤيتها ومشيئتها وأحلامها، حتى وإن أدى ذلك إلى الدخول في صراع دامٍ بين هذه العصي.

وتنتهي القصيدة إلى تقديم رؤية سوداوية عن مصير مظلم للعراق تلتهمه القوميات والطوائف في صراعها الدامي (الخفيّ والمُعلن) لكي تعيد إنتاج دول الطوائف، وتضيع الوطنية، ويتلاشى الوطن، وتنمحي الهوية، ويصير الانتماء محض أضغاث أحلام، ولعل الشاعر هنا يصور بشبكة من الصور الرمزية المكثّفة ذات الإيقاع الداخلي المكتظّ بالألم والحيرة والمعاناة حال الوطن وهو مقبل على ضياع حتميّ، في ظلّ ما يعكسه الواقع من تمثّلات ظلامية يختفي فيها أيّ أثر للنور. فالقصيدة لا تبتعد كثيراً عن روح الفكرة الوطنية التي حملتها مقالات الكاتب الشاعر محمد صابر عبيد، وهو يسعى نحو مقاربة المفهوم وفحص الهوية وتحليل الانتماء، فهو يحاول أن يستعيض عن وطنه المهدد وهويته المهددة وانتمائه المهدد بالكلام، الكلام السرد والكلام الشعر، لأنّ اللغة هي ملاذه الأخير، هي وطنه وهويته وحلمه وانتماؤه، يستثمر حساسيته الإبداعية الخلاقة من أجل التعويض النفسي والدلالي السيميائي والرمزي، يجعل من لغته وطناً لا يخضع للسياسيين الجهلة الطامعين في المكاسب على أنقاض الوطن.

إنّ هذا التلاحم الإبداعي بين السردي والشعري والنقدي في منجز محمد صابر عبيد هو صورة من صور التشكيل الوطني الإبداعي من أجل البحث عن هوية خاصة، إذ تميّز تميزاً كبيراً ((بإنجازاته النقدية التي ستظل تشكّل صلب هويته الثقافية الإبداعية، بل تجاوز ذلك إلى كتابة نصوص إبداعية مختلفة في الشعر والقصة والسيرة والرسائل وغيرها من فنون الإبداع))(٣١)، من أجل تشكيل مدوّنة إبداعية متكاملة تصبح في النهاية

هي وطنه وهويته وانتماؤه كبديل لكل الفقدانات التي توالت على تجربته من البداية إلى النهاية.

في الختام يبقى الوطن هو العراق بأكمله وهو مهد العلم والحضارة والإنسانية ولذلك يتمركز كل شيء فيه، وهو لكل الناس بلا هوية ضيقة لأنّ الهوية العراقية (هوية المواطنة) هي الهوية الأوسع والأشمل، فقد نشأ العراق بلا دين ولا سياسة ولا طوائف ولا قوميات، وعاش عبيد هذا الحلم حتى تحول إلى وجع حقيقي يلوذ به تعبيرا عن حاجة وطنية مفقودة تجعله بلا هوية ولا وجود حقيقي على الأرض وفي الذاكرة، ولعلّ سبب كل ذلك يتمثّل في هوس الأحزاب الدينية وغير الدينية للاستحواذ على السلطة من دون خبرة مدنية في السياسة والحكم، بفعل ما أنتجه الاحتلال الأميركي للعراق من وضع جديد شاذ وغير طبيعي، وتغيير النظام السياسي والتبشير بالديمقراطية المزيّفة حيث تعرّض الوطن لأكبر عملية سطو في التاريخ وأكبر تفتيت للهوية الوطنية لم تحصل في تاريخه، وهو ما يسعى عبيد إلى تمثيله بلغة ثائرة وساخطة وساخرة ترثي ضياع الوطن وتشتته بين القوميات والطوائف فيما سمّي بـ (المحاصصة الطائفية)، وقد دمّرت فكرة الوطنية وأجهضت حلم الكاتب بعراق حرّ موحّد يسع الجميع.

الهوية والانتماء يتحققان بحسب نظرية الحقوق والواجبات. كما يرى عبيد. بصرف النظر عن الدين والقومية والعِرق والطائفة واللون والشكل، فالوطن هوية الجميع وانتماء الجميع حين يشتركون في الأرض والسماء والماء والهواء والحلم والمصير، حيث تأتي لغة الكاتب عبيد منطلقة من ألم كارثي لا تستوعبه النفس الإنسانية الصافية التي تنشد السلام والطمأنينة والعيش الرغيد لأبناء الوطن الواحد بلا استثناء.

الهوامش والإحالات:

(١) في تعريف الهوية وإشكالاتها، د. محمد منصور سالم، مطبعة الأهالي، بغداد: ٥٤.

(٢) في تعريف الهوية وإشكالاتها: ٥٧.

(٣) المراهقة والأزمة: في البحث عن الهوية، اريك إريكسون ، مجلة، أعمال البحث العلمي، بيروت، ترجمة د. أنور عاصي، سنة ١٩٨٨، ع١٦: ١٢.

(٤) تحديد مفهوم الهوية: تأريخ دلالي، ب.كليزون، ترجمة سعاد ناصر، المكتبة العصرية، القاهرة،١٩٨٠: ١١.

(٥) العلامة والهوية الاجتماعية، إ. جوفمان، ترجمة د. أسماء فاضل الجابري، دار النيل، القاهرة،١٩٦٠: ٦٧.

(٦) ما وراء الهوية، ر. بروباكر، ترجمة نصار سامح البدر، دار الكتاب العربي، بيروت: ٣٥.

(٧) هيستريا الهوية، أ. دوبان ، ترجمة سنان لافي عبد الله، دار الآداب، بيروت: ٨٨.

(٨) في حقيقة الإذابة، كوردن آلبور، ت: سامي اسعد الجمال، دار الكتاب، بيروت: ٧٧.

(٩) ابتكار الذات، نظرية في الهوية، ج. ك. كوفمان: ترجمة قصي مسعود خالد، مطبعة النهضة، مصر: ١١١.

(١٠) شاعر وناقد وأكاديمي عراقي، أصدر أكثر من خمسين كتاباً في النقد والشعر، كُتبت عن أعماله النقدية والشعرية العديد من الأطاريح الجامعية والكتب النقدية، فاز بعديد الجوائز عن أعماله، أستاذ نظرية الأدب والنقد في أكثر من جامعة عراقية وأجنبية.

(١١) مرايا الخطاب الإبداعي، قراءات في تجربة محمد صابر عبيد، إعداد وتقديم زياد أبو لبن، دار غيداء للنشر، عمّان، ط١، ٢٠١٤: ٧.

(١٢) عتبات الكتابة النقدية، بحث في مدونة محمد صابر عبيد النقدية، د. سوسن البياتي، دار غيداء للنشر، عمّان، ط١، ٢٠١٤: ١٦ ـ ١٧.

(١٣) مرايا الخطاب الإبداعي: ٧.

(١٤) نشرت المقالات في (الملحق الثقافي) الأسبوعي لجريدة النهار، بيروت على مدى عام ابتداءً من شهر حزيران عام ٢٠١٤م.

(١٥) صدر الكتاب عن الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠١٥.

(١٦) صوت البركان: ٩.

(١٧) صوت البركان: ١١.

(١٨) صوت البركان: ٣٦.

(١٩) صوت البركان: ١٩.

(٢٠) صوت البركان: ١٩ ـ ٢٠.

(٢١) صوت البركان: ٣٧.

(٢٢) صوت البركان: ١٦.

(٢٣) البلوط الأخضر يقطّر العسل الأشقر، محمد صابر عبيد الشاعر الناقد، إعداد وتقديم د.خليل شكري هياس، دار غيداء للنشر، عمّان، ط١، ٢٠١٥: ١٤.

(٢٤) صوت البركان: ٢٠ ـ ٢١.

(٢٥) صوت البركان: ٤٣.

(٢٦) صوت البركان: ٢١.

(٢٧) صوت البركان: ٢١.

(٢٨) صوت البركان: ٣٢.

(٢٩) جماليات اللغة النقدية عند محمد صابر عبيد د. إبراهيم مصطفى الحمد، ضمن كتاب: فضاء الرؤية وآليات المنهج، الجمالي والثقافي في خطاب محمد صابر عبيد النقدي: ١٢٥.

(٣٠) انظر القصيدة كاملة، ملحق جريدة النهار، بيروت، العدد (١١٦٣)، ١٢ تموز ٢٠١٤.

(٣١) النافذة والريح، إضاءات في تجربة محمد صابر عبيد الإبداعية، د. محمد صالح رشيد عبد الحافظ، دار غيداء للنشر، عمّان، ط١، ٢٠١٤: ٢١.